

صلاح الدين الأيوبي وبالبيان دي إيبيلين "الحرب والسلام أمام أسوار القدس"

أ.د ياسر مصطفى عبدالوهاب

أستاذ تاريخ وحضارة العصور الوسطى

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث - جامعة كفر الشيخ

على الرغم من الدموية والعداوة التي ميزت العلاقات بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية في العصور الوسطى، إلا أن تلك العلاقات شهدت في بعض الأحيان نوعاً من التلاقي السلمي، بعد أن ظهرت شخصيات أرادت أن تتجنب القتال والمواجهات العسكرية بين المسلمين والصليبيين، ولا شك أن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي بما عرف عنه من ميل للتسامح في كثير من أحداث الصراع الدائر بين الجانبين في تلك الفترة، وكانت مدينة القدس شاهداً على علاقة سلمية قلما ما تحدث أثناء تلك المواجهات العسكرية الدموية في كثير من الأحيان، وكان الأمير الصليبي باليان دي إيبيلين Balian de Ibelin هو الطرف الثاني من تلك المواجهة التي دارت أمام أسوار القدس، ومثلت في وقت واحد الحرب والسلام المتمثل في البراعة الدبلوماسية للقائد المسلم.

وقبيل الخوض في تفاصيل ذلك اللقاء الذي جمع بين القائد الإسلامي والأمير الصليبي، نرى من الأوفق أن نتعرف عن باليان وطبيعة علاقته بصلاح الدين قبيل اللقاء الذي جمع بينهما أمام مدينة القدس.

ينتمي باليان إلى أسرة إيبيلين Ibelin أحد أهم الأسر الصليبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وبدأت مكانة مؤسسها باليان الكبير في الظهور وسط زعماء الصليبيين عندما قرر الملك الصليبي فولك تشييد العديد من القلاع الحصينة^(١) وعقد الملك فولك اجتماعاً عاماً في عام ١١٤١-١١٤٢م / ٥٣٦-٥٣٧ هـ، تم فيه منح قلعة يبنى Yavne إلى باليان الكبير لحمايتها وحراستها وإقطاعها له^(٢)، وقد سميت القلعة والمنطقة المحيطة بها باسم إيبيلين Ibelin، وهو مشتق من الاسم

(١) من تلك القلاع قلعة بيت جبرين Beth Gibelin عام ١١٣٧م / ٥٣٢ هـ، وكذلك قلعة تل الصافية Blanche Garde عام ١١٤١م / ٥٣٦ هـ، وقلعة الكرك عام ١١٤٢م / ٥٣٧ هـ. وعن أهمية تلك القلاع ودورها الاستراتيجي والعسكري في تلك الفترة، انظر: حسن عبد الوهاب حسين: مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية، مقال في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، الإسكندرية ١٩٩٧م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) شيدت تلك القلعة على تل مرتفع من الصخر شديد الصلابة، وحفر لها أساس بعيد العمق وجعل له أربعة أبراج متساوية الارتفاع، كما أخذوا كميات من الأحجار من المدينة القديمة وقد ساعدتهم الآبار القديمة التي كانت تكثر في تلك المنطقة، وتزخر بكميات وفيرة من المياه التي كانت عوناً في الانتهاء

القديم لها بينى ، وأطلق على باليان لقب الإيبيلينى ، و أصبح لقب إيبيلين هو الاسم الذى سوف يطلق على أسرته من بعده ، حيث تصبح من أشهر العائلات الغربية فى منطقة الشرق اللاتينى .^(٣) وبالإضافة إلى ما حصل عليه باليان الكبير من قبل ، فقد ساعدته الظروف كثيرًا فى الارتقاء به بين كبار بارونات المملكة . وكانت وفاة رينيه صاحب الرملة ومجدليابة .^(٤) Renier de Ramla – Mirabel فى عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ دون أن يكون له وريث لاقطاعيته ، سبب فى انتقال هذا الإرث إلى أخته هيلفيس زوجة باليان .^(٥) ، وهكذا أصبح باليان الكبير سيدًا على إيبيلين و الرملة ومجدليابة فى غضون بضع سنوات فقط .

وقد ترك باليان الكبير خمسة أبناء ، ثلاثة من الذكور واثنان من الإناث . و أشاد وليم الصورى بالذكور قائلا : " إنهم خير أبناء ، و أن هؤلاء النبلاء المحاربين البواسل و الأبطال المغاوير أحسنوا إحسان والدهم " .^(٦) و كان أكبرهم هيو Hug ثم بلدوين Baldwin و أصغرهم باليان الثانى

من عملية البناء .

CF.William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, 2 vols., trans. and annotated by Emily Babcock and A.C. Krey, (New York, 1943), Vol.2,P.131.

William of Tyre , Loc.cit.;CF.also:Prawer.J., *The Latin Kingdom Jerusalem* ,^(٣)
Jerusalem , 1972,P.133.

^(٤) مجدليابة : قرية تقع قرب الرملة وتتحكم فى معظم الممرات الجبلية الطبيعية المؤدية إلى الرملة ، و يوجد بها حصن شديد المناعة ، انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق ، مج ٥ ، ص ٥٧ . وكذلك انظر :

Benvenisti,M., *The Crusaders in The Holy Land* , Second Printing,
(Jerusalem1976)
,P.194.

^(٥) رينيه بن بلدوين الأول سيد الرملة ، وقد خلف أخاه بلدوين الثانى (١١٣٨ - ١١٤٤م) على حكم إقطاع الرملة و مجدليابة فى الفترة ما بين عامى (١١٤٤ - ١١٤٨م) ، و بوفاته انتقل الإرث بشكل طبيعى إلى شقيقته هيلفيس. انظر :

Mayer,H.E., *Ibelin Versus, Ibelin" The Struggle for the Regency of Jerusalem*,
1253 – 1258, in P.A.P.S., vol. CXXII, 1972,PP.116–117.

William of Tyre,op.cit.,Vol.2,P.131.^(٦)

II Balian ، بالإضافة إلى ابنتين هما أرمينجارد Ermengard و أصغرهم كانت ستيفاني Stephanie ليواصل هؤلاء سيرة والدهم باليان دي إيبيلين في المملكة الصليبية .^(٧)

بدا أسم باليان دي إيبيلين في الظهور وسط بارونات المملكة الصليبية في بلاد الشام في بزواجه من الملكة ماريا كومنينيا Maria Comnena أرملة الملك عموري الأول^(٨) فقدمت له إقطاع نابلس بئنة لزواجها منه حسبما جرى العرف آنذاك، و أصبح لقبه في الوثائق الرسمية باليان سيد نابلس^٩ و قد انعكس ذلك على مكانة باليان بما حازه من هذا الإقطاع المهم ، والذي يعتبر إحدى الإقطاعات الرئيسية في مملكة بيت المقدس نظراً لموقعها المهم من ناحية ، وأهميتها الاقتصادية من ناحية أخرى.^(١٠) وقد اختلف آراء المؤرخين حول تاريخ زواج باليان و ماريا^(١١) وكان أول ظهور له في الوثائق ، و هو يحمل لقب سيد نابلس Balianns Neapolis ، وذلك في أكتوبر ١١٧٧م ، حيث شهد على وثيقة في إقطاعية زوجته ، و هي عبارة عن منحة سابقة في نابلس حصل عليها المشرفون على برج داود^(١٢) و قد جرت العادة أن يتم توثيق المنح السابقة عندما يؤول الإقطاع إلى سيد جديد حفاظاً على حقوق أصحابها السابقين.^(١٣)

^(٧) Du Cange, *Les Familles d'outre mer*, ed. E.G.Rey (Paris,1869), PP.361-362

ولمزيد من التفاصيل عن أسرة إيبيلين ، انظر:

ياسر مصطفى عبد الوهاب: أسرة إيبيلين في بلاد الشام وقبرص زمن الحروب الصليبية ، المكتب العربي للمعارف ، القاهرة ٢٠٢١م.

^(٨) William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea*, Vol.2, P.405

وعن المزيد من التفاصيل حول مجيء ماريا كومنينيا من بيزنطة ، و هي تحمل لقب أميرة ، ثم زواجها من الملك عموري الأول عام ١١٦٧م . انظر: محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين ١١٤٣-١١٨٠م، الإسكندرية ١٩٨٥م، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

^(٩)

Ernoul, *Chronique de Ernoul* p.44,115; Eracles, *L'Estoire*, p.68; Rohricht,R ed., *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2vols., (Innsbruck, 1892 - 1904)548, p. 146

^(١٠) سعيد عبدالله جبريل البيشاوي : نابلس في عصر الحروب الصليبية، عمان . ١٩٩١م ، ص ١١٠.

^(١١) يرى دو كانج أن الزواج تم في عام ١١٧٦م ، بينما يرى جروسية أنه تم في بداية عام ١١٧٧م .

Du Cange, *Les Familles d'outre mer*, P.409;

CF.also: Grousset,R., op.cit., Vol.2,P.609 .

^(١٢) Rôhrich, *Grousset ,R,historie des Croisades,, Doc. 548.P.146.*

في تلك الوثيقة يؤكد باليان المنحة التي منحها الملك عموري في إقطاعية نابلس إلى المشرفين على برج داود، و كان عموري قد قدم الجزية السنوية التي يدفعها سكان قريتي سفارين Safarin و كفرعين Kafarain

ومن المعارك التي شارك فيها باليان ضد صلاح الدين ، معركة مرج عيون التي جرت يوم الأحد ١٠ يونيو ١١٧٩م / ٣ محرم ٥٧٥هـ ، والتي حدثت نتيجة محاولة الملك بلدوين الرابع أن يضع حدًا لغارات صلاح الدين على ممتلكاته في بلاد الشام ، فحشد قادة المملكة بقواتهم ، ليلتقي الجيش الصليبي والإسلامي^(١٤) و انهزم فيها الجيش الصليبي هزيمة قاسية و حماسة . وعندما حاول بعض القادة الصليبيين الفرار و الالتجاء إلى أحد الكهوف أثناء الليل ، عثر المسلمون عليهم عند طلوع النهار ، فقاموا بأسر غالبية القادة ، و كان من بينهم مقدم الداوية أودو دى سانت أماند Odo de Sant Amand و بلدوين دى إيبيلين و هيو Huge سيد الجليل^(١٥) والملاحظ أن المصادر العربية أخطأت عندما ذكرت أن الأخوين إيبيلين، وقعا في أسر المسلمين، و لكن بالرغم من مشاركة باليان دى إيبيلين في المعركة ، إلا أنه لم يقع في الأسر ، و لكن بلدوين فقط هو الذى لاقى هذا المصير، و هو ما ذكره المؤرخان الصليبيان المعاصران للأحداث ، و هما : وليم الصورى و أرنولد ، و خاصة أن الأخير كان ملازمًا لأسرة إيبيلين ، و لعل سبب الخلاف عند المؤرخين العرب يرجع إلى تقارب أسمائهما، مما أدى إلى الخلط بين الأخوين، بالإضافة إلى خروجهما معًا ضمن قوات المملكة ، مما أوجد خلطًا بين من أسر ، ومن أمكنه الفرار .

ومن المشاركات العسكرية لباليان ضد المسلمين زمن صلاح الدين ،عندما حاصر الأخير حصن الكرك يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١١٨٤م / جمادى الأولى ٥٨٠هـ^(١٦) وعلى الفور حشد الملك بلدوين

الواقعتين ضمن حدود إقطاعية نابلس إلى المسؤولين عن حماية برج داود في بيت المقدس، و من الملاحظ أن بلدوين كان من اللذين شهدوا على هذه الوثيقة، و هو يحمل لقب دى إيبيلين، مما يدل على تماسك العائلة .

^(١٣) سعيد عبد الله جبريل البيشاوى : نابلس في عصر الحروب الصليبية، ص ١١١ .

^(١٤) مرج عيون: سهل واسع يقع بين نهر اليرموك و قلعة شقيف أرنون، و المرج: الأرض الواسعة الصالحة للزراعة ، انظر : ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٦ ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ ، مج ٥ ، ص ١٠٠-١٠١ .

Ernoul, *Chronique de Ernoul*,

P.53.

كذلك: أبوشامة: الروستين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزآن في مجلد واحد ، القاهرة ١٩٥٦- ١٩٦٢م . ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " خمسة أجزاء - ج ١ ، ٢ ، ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٠ م ج ٤ ، ٥ ، تحقيق حسنين ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ ، ١٩٧٧ م ، ج ٢ ، ص ٧٥-٧٦؛ المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ،" نشر محمد مصطفى زياد ، الجزء الأول في ثلاث أجزاء القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ مج ١، ١، ص ٦٨ .

^(١٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٢٧ .

كان من أرفع المطامع التي يحلم صلاح الدين بتحقيقها هى أن يدمر حصن الكرك و سيده رينالد دى شاتيون فطالما ظل هذا الحصن فى يده صار بوسعه اعتراض الطريق الذى تسلكه القوافل التجارية من الشام إلى مصر ، و عن ذلك انظر :

الرابع كل قادة المملكة بقواتهم الإقطاعية ، و كان منهم باليان سيد نابلس . و عندما و صلت قوات المملكة أمام حصن الكرك تركزت في أماكن جبلية يصعب الوصول إليها ، مما اضطر صلاح الدين في النهاية إلى الرحيل عن الكرك ^(١٧) وعندئذ اتجه صلاح الدين تجاه نابلس ، و أنزل بها الخراب و هرب بعض سكانها إلى قلعة المدينة و استطاع صلاح الدين أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الموجودين في المدينة ، في حين أن برج المدينة و قلعتها ظلت في مأمن من الدمار ، وبالطبع لم يكن باليان متواجد بالمدينة آنذاك. ^(١٨) ليتأجل لقاء القائد الإسلامي بالأمير الصليبي لما يقرب من ثلاثة سنوات.

لعب باليان دي إيبيلين دورًا مؤثرًا ، في منع نشوب حرب أهلية بين الصليبيين وبعضهم البعض ، في ظل الصراع المرير الدائر بين الملك جي دي لوزينيان والأمراء الصليبيين تحت زعامة ريموند الثالث كونت طرابلس ، خاصة قبيل نشوب معركة حطين وعمل على توحيد الجبهة الصليبية، خاصة بعد أن وصلت الأخبار عن استعدادات صلاح الدين للحرب المقبلة ، و التي جعلت باليان يتحدث مرة أخرى مع الملك الصليبي في الوفاق مع ريموند ، إذ قال له " إذا خسرت مساعدة الكونت ريموند ونصيحته انتهى أمرك". ^(١٩) وعقب ذلك ونتيجة لتدخل باليان أعلن ريموند ولاءه وتبعيته للملك جي ^(٢٠) . وهكذا تكللت جهود باليان دي إيبيلين بالنجاح في محاولة توحيد الجبهة الصليبية، ولا شك أنه أسهم في منع نشوب حرب أهلية بين الصليبيين، بل يرجع إليه الفضل في منع حدوث اضطرابات في المملكة ذاتها بسبب العداء بين الملك وكونت طرابلس، وما يمكن أن يسببه ذلك من قلق في عاصمة المملكة.

Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 vols., (Cambridge, 1968), Vol.2, PP. 245-246.

^(١٧) ابن شاهنشاه الأيوبي: مضممار الحقائق ، ص ١٨٩؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٩؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء في مجلدين ، بيروت ب.ت. ، ج ٣ ، ص ٦٨.

^(١٨) Roger of Wendover, *Flowers of History*, 2Vol, Trans from The Latin, by J.A Gilles, (London, 1849) , Vol.2, P.55; CF. also, Rôhrich, op.cit., P.411

أيضًا : ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٧٤م ، ص ٢٧٢؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٢؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٩. ايضًا: سعيد عبدالله جبريل البيشواوي : نابلس ، ص ١١٦.

^(١٩) Ernoul, *Chronique de Ernoul*, P.143.

^(٢٠) أشار المؤرخ ابن الأثير إلى عقد الصلح الذي تم ما بين الملك و كونت طرابلس ، و أوضح فيه أن الأخير قبل المصالحة مع الملك بعد اشتداد الأمر عليه ، للمزيد من التفاصيل انظر :ابن الأثير الكامل ، ج ١٠، ص ١٤٤.

والواقع أن جهود باليان الرامية إلى توحيد الجبهة الصليبية، قد أثمرت في تحقيق بعض أهدافها، إذ تفرغ الصليبيون بعد ذلك لتكثيف جهودهم لمحاربة صلاح الدين والتصدى له. ومن أجل ذلك قام الملك وكونت طرابلس وباليان دى إيبيلين بتوجيه النداء إلى جميع النبلاء الصليبيين يطلبون منهم المساعدة في قتالهم المرتقب ضد المسلمين تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي^(٢١). وفي أحداث معركة حطين الشهيرة بين الصليبيين والمسلمين، شارك باليان دى إيبيلين بقوات نابلس في تلك المعركة الحاسمة^(٢٢)، كما شارك ريموند كونت طرابلس بقواته في الجيش الملكي، الذي أعده الملك جى، وعندما اكتملت جموع الصليبيين تحركوا لقتال المسلمين في يونيو ١١٨٧م/ ربيع أول ٥٨٣هـ. وفي بداية الأمر وصلت القوات الصليبية إلى مدينة عكا، ومنها اتجهوا نحو صفورية، حيث عسكروا بالقرب منها^(٢٣).

عندما علم صلاح الدين باعتصام الصليبيين قرب صفورية، تحرك بقواته تجاه طبرية في مساء ٢ يوليو ١١٨٧م/ ٢٢ ربيع أول ٥٨٣هـ، وفرض الحصار عليها^(٢٤). وعندئذ قرر الملك جى عقد مجلس حربي لمناقشة الموقف، غير أن المجتمعين اختلفوا فيما بينهم فأقر بعضهم بالاتجاه نحو طبرية، لمحاربة صلاح الدين ورفع الحصار عنها، وعلى رأس هؤلاء كان مقدم الداوية جيرارد ريد فورت، الذي كان متأثراً بما حل بقواته في كارثة صفورية. في حين رأى ريموند كونت طرابلس عكس ذلك، إذ كان يرى ضرورة بقاء القوات الصليبية في وضع دفاعي في صفورية تنتظر ملاقات قوات صلاح الدين^(٢٥).

أما عن موقف باليان دى إيبيلين من بقاء القوات الصليبية في صفورية أو رحيلها نحو طبرية، فمن المرجح أنه كان من المؤيدين لموقف ريموند كونت طرابلس، قياساً على مواقفه السابقة، فقد وقف باليان إلى جانب ريموند عندما اشتد الخلاف حول بقاء القوات الصليبية في معسكر الفولة عام ١١٨٣م/ ٥٧٩هـ واتخذ جانب ريموند، وأيده أيضاً في صراعه مع جى حول عرش المملكة، وكان من المعارضين لتتويج جى ملكاً على بيت المقدس، وذلك حينما عقد مجلس نابلس عام ١١٨٦م/ ٥٨٢هـ.

(٢١) بسم العسيلي : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، دار النفائس بيروت ١٩٨٧م ، ص ٩٧

(٢٢) سعيد البيشاوى : نابلس في عصر الحروب الصليبية ، ص ١٢٥.

(٢٣) Stevenson, op. cit., P. 242.

(٢٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠، ص ١٤٥؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٦؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتي ، ج ٢، ص ٧٦.

(٢٥) كان ريموند كونت طرابلس يرى أن بقاء الصليبيين في صفورية هو الرأي الأفضل ، نظراً لقلّة المياه على طوال الطريق بين صفورية و طبرية ، و الصعوبات التي سوف تواجه الجيش الصليبي أثناء سيره في طرق وعرة ، قليلة المياه ، و أن الجيش سوف يتعرض للعطش قبل وصوله طبرية . و للمزيد من التفاصيل انظر :

Eracles, *L'estoire*, PP.49-51; CF.also:Stevenson, op. cit.,P245

، فلا بد وأنه كان من المؤيدين لريموند أيضاً — في هذا الموقف — في بقاء الصليبيين في صفورية ، لما في ذلك من مخاطرة.

على أى حال تغلب رأى الخاص بمغادرة القوات الصليبية لصفورية وتقرر المسير نحو طبرية ، وكان ريموند كونت طرابلس يتولى قيادة مقدمة الجيش الصليبي، في حين كانت قيادة قلب الجيش الصليبي من نصيب الملك جى، بينما كان باليان دى إيبيلين وريناد سيد صيدا^(٢٦) Reynald of Sidan (١١٨٠ - ١٢٠٤م / ٥٧٦ - ٦٠٠هـ) وفرسان الداوية والإسبتارية في مؤخرة الجيش الصليبي^(٢٧).

نصب صلاح الدين معسكره قرب تل حطين منتظراً هناك حين وصول الصليبيين. وفي يوم السبت الموافق ٤ يوليو ١١٨٧م / ٢٥ ربيع أول ٥٨٣هـ دارت رحى الحرب بين المعسكرين وأخذت سهام المسلمين تنهال على الصليبيين من كل جانب^(٢٨). وعندما أيقن ريموند كونت طرابلس أن المعركة خاسرة ، وأن الهزيمة واقعة لا محالة ، قرر الانسحاب من ميدان القتال، وفتح له المسلمون ثغرة ينفذ منها في الجهة التي كان يقاتل فيها تقى الدين عمر - ابن اخى صلاح الدين - الذى أمر أتباعه بفتح الثغرة لكونت طرابلس، فتمكن هو وفرسانه من الهرب^(٢٩). ولم يلبث باليان دى إيبيلين و رينالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج أرض المعركة فكانا آخر من هرب^(٣٠). وما أن شاهد الصليبيون موجة الفرار التي قام بها القادة الصليبيون، حتى استبد بهم اليأس وتدهورت الروح المعنوية لديهم، مما أدى بهم في لنهاية إلى هزيمة قاسية من المسلمين وتم أسر العديد من القادة الصليبيين وعلى رأسهم الملك الصليبي نفسه^(٣١). وبالرغم من أن باليان دى إيبيلين، قد آثر الهروب من معركة حطين، إلا

^(٢٦) رينالد سيد صيدا : من أهم بارونات الشرق الإفرنجي في القرن الثاني عشر الميلادي ، و كان قد تزوج من أنجيس دى كورتناى أرملة هيو دى إيبيلين ، و هى الزوجة المطلقة من الملك عمورى الأول ، و والدة بلدوين الرابع ، ثم تزوج من ابنة باليان دى إيبيلين ، مما جعله على صلة قوية بعائلة إيبيلين.

CF.Rudt de Collenberg , op.cit., PP.470-472.

Jacques de Vitry , op.cit., PP.100-101; CF.also: King , op.cit., P.126^(٢٧)

^(٢٨) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٧ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧.

^(٢٩) ابن الأثير : المصدر السابق ، نفس الجزء و الصفحة ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص٧٧؛

Eracles, *L'estoire*, P.54

Ernoul, *Chronique*, P.152; CF .also: Runciman , op.cit., Vol.2, P.458.^(٣٠)

و كذلك : بسام العسيلي : المرجع السابق ، ص١٠٥.

^(٣١) كان من أهم الشخصيات التي أسرت مع الملك الصليبي جى دى لوزينيان ، و رينالد دى شاتيون حاكم الكرك ، و مقدم الداوية ، وهيو حاكم جبيل ، و عمورى كندسطل المملكة و شقيق الملك ، و غيرهم كثيرون . للمزيد من التفاصيل عن معركة حطين ، انظر: ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ، ص 148 - 146 ؛ ابن شداد :

أنه لجأ إلى ذلك، خاصة بعد أن اشتدت وطأة القتال، و أصبحت الهزيمة واقعة لا محالة في ذلك، بالإضافة أيضاً إلى فرار ريموند كونت طرابلس أكبر أنصار باليان في تلك الفترة، فكان باليان آخر من هرب من ميدان المعركة ، و هو لا يعلم أن القدر كان يخفى له نصالاً آخر مع المسلمين، وهو ما سوف تظهره الأحداث فيما بعد.

عمل صلاح الدين على استغلال النجاح الذي أحرزه في المعركة السابقة ، و هو ما يظهر كفاعته باعتباره قائداً عظيماً. فقرر التوجه إلى فتح المدن الساحلية فتوجه إلى عكا أهم المراكز الصليبية، وتمكن من استعادتها^(٣٢).

بطبيعة الحال تأثرت أملاك باليان إيبيلين لما يقوم به صلاح الدين الأيوبي في تلك الفترة ، و ذلك كغيره من أملاك الامراء الصليبيين. فنجد أن صلاح الدين توجه أيضاً استعادة المواقع الداخلية مثل : مجدليابة التي سقطت بسهولة على يد أخيه العادل^(٣٣). وما لبث أن تهاوت باقي معاقل باليان وأسرته، فاستطاع صلاح الدين أن يستولى على الرملة و إيبيلين دون أى مقاومة تذكر^(٣٤). ولاشك أن هذا السقوط السريع لتلك المعاقل يرجع إلى خلوهما من الحماية اللازمة لانتقال معظم الصليبيين عنهما وعلى رأسهم بالطبع آل إيبيلين وزعيمهم باليان ، لرغبة الجميع في الدفاع عن المدينة المقدسة عاصمة المملكة وقتئذ، بل أن فرسان الداوية الموجودين في الرملة وإيبيلين سلموا قلاعهم إلى قوات صلاح الدين دون قتال^(٣٥). فكان من البديهي أن تفقد باليان وأسرته أملاكهم في تلك الفترة الهامة من الصراع الصليبي الإسلامي .

النوادر السلطانية ، ص 75-77؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج 2 ، ص 85 - 77 ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 2 ، ص. 196 - 189 و أيضاً :

Roger of Hoveden , *Annals Comprising The History of England and other Countries of Europe from A.D.732 to A.D.1201*, Trans from The Latin with notes and illuslrotions by Henry T.Riley.2 Vol.2,(London-1883) , Vol.2,P.84.

(٣٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج٢ ، ص٨٤.

(٣٣) ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ، ص 150 ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص 79 ؛ أبو شامة :

الروضتين في أخبار الدولتين ، ج 2 ، ص. 87

(٣٤) ابن الأثير : الكامل ، [ج١٠، ص١٥٠-١٥١ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٨٠ ؛ الحريري : الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين ، دار الدعوة ، الإسكندرية ١٩٨٤م ص ٣٦ .

Eracles , *L'estoire*, PP.77-79

(٣٥)

كان صلاح الدين قد استخدم مقدم الداوية الموجود أسيراً لديه ، في الضغط على فرسانه ، و جعلهم يسلمون القلاع دون قيد أو شرط . و للمزيد من التفاصيل انظر: إبراهيم خميس : العلاقات السياسية بين جماعة فرسان الداوية و المسلمين ، ص ٦٢-٦٣.

حينما غادر باليان دى إيبيلين ميدان المعركة، عاد إلى صفورية، وهناك قرر التوجه نحو إقطاعية نابلس ، حيث كان قد ترك زوجته الملكة ماريا كومنينيا وأولاده^(٣٦). و هناك وجد أنها علمت بما حدث فى كارثة حطين ، وانها غادرت نابلس واتجهت نحو مدينة بيت المقدس، وعندئذ غادر نابلس على الفور^(٣٧). وأصبحت نابلس فى حالة يرثى لها مثلها فى ذلك مثل باقى المعاقل الصليبية، فطلب حسام الدين محمد بن لاجين^(٣٨) من صلاح الدين السماح له بالمسير صوب نابلس ليفتحها ويظهرها من بقايا الصليبيين، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها ومعاقها، وسيره لفتحها واستعادتها من الصليبيين^(٣٩). فاتجه صلاح الدين إلى نابلس فى أواخر شهر يوليو ١١٨٧م/ ربيع أول ٥٨٣هـ ، ولكنه فوجئ باعتصام حامية المدينة التى تركها باليان دى إيبيلين فى قلعة المدينة^(٤٠) ، فقام على الفور بمحاصرتها ، لكن حاميتها دافعت ببسالة، فشدد الحصار عليها وهاجمها بشدة فاضطر الصليبيون فى نهاية الأمر إلى طلب الأمان و تسليم القلعة^(٤١). وهكذا أسقطت آخر ممتلكات آل إيبيلين فى المملكة الصليبية ، مثل باقى العائلات الصليبية التى فقدت ممتلكاتها خلال موجة الاسترداد التى قادها صلاح الدين الأيوبي.

من المعروف أن مدينة صور كانت ملجأ و ملاذًا للجموع الصليبية بعد كارثة حطين و سقوط بقية المعاقل الصليبية ، فأراد باليان دى إيبيلين أن يحضر زوجته وأولاده إلى تلك المدينة الحصينة^(٤٢) وحسبا ذكر المؤرخ أرنول Ernoul كان أول إجراء يجب اتخاذه هو أن يطلب باليان من صلاح الدين الحاكم المسيطر والمهيمن على المنطقة فى تلك الفترة ، إذن مرور ليتوجه به إلى مدينة بيت المقدس ويحقق ما يريد، فأجابه صلاح الدين إلى طلبه بشرط ألا يمكث فى المدينة إلا ليلة واحدة وكذلك لا يحمل معه

Eracles , *L'estoire*, P.68

(٣٦)

Eracles, Loc. Cit; CF. also: Conder, op.cit., P.152.

(٣٧)

(٣٨) حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين : هو ابن أخت صلاح الدين الأيوبي ، و كان شجاعاً مقداماً إلى جانب كونه من أكبر أعوان صلاح الدين و للمزيد من التفاصيل انظر: سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٨، ق١ ص١٤٣.

(٣٩) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ص٨٨ ؛ راجع ايضا: سعيد البيشاوى : نابلس فى عصر الحروب الصليبية ، ص ١٢٨

Runciman ,S., *A History of the Crusades*, Vol.2,P.461.

(٤٠)

(٤١) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠، ص١٥٠؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧٩-٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢، ص ٢٠٣ ، و للمزيد من التفاصيل عن استعادة المسلمين لنابلس، انظر: سعيد البيشاوى : نابلس فى عصر الحروب الصليبية ، ص ١٢٧-١٢٩.

Runciman,S., *A History of the Crusades*, Vol.2,P.463.

(٤٢)

سلاحًا وأقسم باليان على ذلك^(٤٣). ولا شك أن تلك الإشارة التي أوردها المؤرخ الصليبي أرنول ،وهو المعاصر للأحداث ، يدل على مدى ما تمتع به صلاح الدين من السماحة والكرم.

ما أن وصل باليان دى إيبيلين إلى مدينة القدس، حتى وجدها فى حالة يرثى لها، وذلك لعدم وجود الفرسان الذين يدافعون عنها، إذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان، فضلاً عن انهيار الروح المعنوية للسكان، وذلك عقب ما سمعوه من أنباء كارثة حطين والهزيمة القاسية التى لحقت بالصليبيين وأسر ملكهم جى دى لوزينيان^(٤٤).

بمجرد أن دخل باليان المدينة وجد فى استقباله البطريك هرقل Eracles ورجال الدين ، وكان الأسف والحزن الشديد يسيطر على سكان المدينة الذين فرحوا برؤيته وتوسلوا إليه بالدموع ليبقى معهم ويدافع عنهم وكان البطريك على رأسهم^(٤٥). وتعلل باليان بالقسم الذى أقسمه لصلاح الدين، بألا يبقى بالمدينة أكثر من ليلة واحدة فقط^(٤٦). ولذا فقد قام البطريك بإعفائه من قسمه قائلاً له: " فلتعلم أنه سوف تكون خطيئة كبرى لو أنك حافظت على قسمك من أن تقوم بنكته، وسوف يكون عار عليك وعلى ذريتك لو أنك تركت المدينة فى ساعة الخطر، وسوف تكون غير قادر على استعادة شرفك مهما قمت بمحاولات" فوافق باليان أخيراً^(٤٧).

وعندما استبدت الحيرة باليان ، كتب إلى صلاح الدين يشرح له إقدامه على انتهاك اليمين الذى أقسمه، كما تعودنا أن نرى صلاح الدين يشتهر دائماً بالمروءة والشهامة مع اعدائه، فقد قرر العفو عنه مقدراً موقفه العصيب ما بين الوفاء بالوعد الذى قرره على نفسه وبين واجبه تجاه قومه وأهله.^(٤٨)

واستمراراً للعلاقات الطيبة التى ربطت بين باليان دى إيبيلين وصلاح الدين الأيوبي، لم يكتف الأخير بالعفو عن باليان، بل وافق على أن يرسل حرساً خاصاً ليرافق ماريّا كومنينّا زوجة باليان وأطفالها وحاشيتها، وكل أمتعتها إلى مدينة صور^(٤٩). وسار بصحبته توماس بن بلدوين دى إيبيلين

Ernoul, *Chronique*, P.175.

(٤٣)

Besant and Palmer, op.cit., P.393.

(٤٤)

Eracles , *L'estoire*, P.69.

(٤٥)

و للمزيد من التفاصيل عن رد فعل الصليبيين عند وصول باليان إلى المدينة المقدسة.

انظر : بسام العسيلي : العسيلي الأيام الحاسمة ، ص ١٢٥ .

Ernoul, *Chronique*, P.176.

(٤٦)

Ernoul, *Chronique*, P.176.

(٤٧)

Ernoul, *Chronique*, P.176; CF.also: Runciman ,S., *A History of the Crusades*, (٤٨)

Vol.2, P.463.

Ernoul, *Chronique*, P.187; CF.also: Grousset, op.cit., Vol.2, P.809.

(٤٩)

شقيق باليان، وكذلك وليم William ابن هيو سيد جيبيل Huge de Gibelet وذلك إشفاق على الطفلين من ويلات الحصار الناتجة من محاصرة المسلمين لمدينة بيت المقدس، وعندما مثل الطفلان بين يدي صلاح الدين - في حالة يرثى لها- أمر على الفور لهما بثياب جديدة وطعام وألعاب للتسلية، ثم أجلسهما كل واحد على إحدى رجله، ثم أخذت دموعه تنهمر من عينيه على هذين الطفلين ورثة المجد الغابر^(٥٠). فلما قيل له إنهما من أطفال الصليبيين قال " إن الأيام دول وإنى أفعل ذلك بهما أملاً في أن يجد أبنائى من بعدى من يفعل بهم ذلك" وكان من الملاحظ أن تاريخ هرقل Eracles L'estoire قد انفرد عن بقية المصادر الصليبية والعربية المعاصرة لتلك الفترة ، بذكر المعاملة الطيبة من جانب صلاح الدين لأطفال الصليبيين، ومن بينهم أطفال باليان إيبيلين^(٥١)

وبطبيعة الحال ، وبعد أن أطمأن باليان دى إيبيلين على خروج زوجته وأولاده وابن أخيه من بيت المقدس سالمين متوجهين إلى مدينة صور، كان عليه التفرغ التام لبيت المقدس، كى يتولى مهمة الدفاع عنها.

وعلى الفور أخذ باليان دى إيبيلين فى إقامة التحصينات الدفاعية فى بيت المقدس، وبذل كل ما بوسعه من جهد من أجل تنظيم أمر الدفاع عنها، وبالرغم من تدفق العديد من اللاجئين من المناطق المجاورة على المدينة، إلا أن القليل منهم من كان يصلح للقتال^(٥٢)، مما جعل باليان ينصب فارساً كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره و انحدر من أسرة نبيلة ، ووجه جماعات من الرجال لتلتمس كل ما تعثر عليه من طعام ،قبل أن يغلق عليهم المسلمون الطرق إليها، وتسلم الخزانة الملكية، ثم لجأ بالاتفاق مع البطريك بنزع الفضة من سقف كنيسة القيامة بالمدينة، وقام بصهرها وضربها نقوداً يستعين بها على قضاء حاجات الدفاع واستئجار الجند، ثم قرر توزيع الأسلحة على كل من استطاع أن يحمل السلاح^(٥٣).

وهكذا اتخذ باليان دى إيبيلين كل السبل لصد الهجوم المرتقب من صلاح الدين الأيوبي على مدينة بيت المقدس، ومن الملاحظ أن معظم المصادر العربية أشارت إلى تلك الإجراءات و التحصينات التى

(٥٠) Eracles, *L'estoire*, PP.84-85; CF.also: Runciman, S., *A History of the Crusades*, Vol.2, P.463

(٥١) Eracles, *L'estoire*, PP.84-85.

(٥٢) Ernoul, *Chronique*, P.214; CF.also: Runciman, S., *A History of the Crusades*, Vol.2, P.464.

(٥٣) أورد المؤرخ أرنول أدق التفاصيل عن تلك الشخصيات ، إذ كان برفقة باليان دى إيبيلين بمدينة بيت المقدس .

CF.Ernoul . *Chronique* P.215; Eracles

L'estoire, P.70; CF.also: Grousset, op.cit., Vol.2, P.809.

أقامها باليان ، و أطلقت على باليان اسم باليان بن بارزان، و قدرت عدد المدافعين عن بيت المقدس عندئذ بأكثر من ستين ألفاً ، و هو عدد تبدو فيه المبالغة الواضحة ويتعارض تعارضاً حاداً مع ما ذكرته المصادر الصليبية المعاصرة من نقص المحاربين في المدينة^(٥٤)، وذلك بالرغم من الصعوبات العديدة التي كانت تواجهه، والتي أشار إليها أحد المؤرخين المحدثين بقوله: " إن باليان حاول بكل ما في وسعه من جهد، ولكن مع ذلك فإنه من الواضح أن جميع تلك الإجراءات كانت ضعيفة لا تكفي لإنقاذ بيت المقدس، بسبب نقص العنصر البشري في القتال، وخاصة الفرسان المدربين"^(٥٥).

على أيه حال، وصلت قوات صلاح الدين الأيوبي أمام بيت المقدس، وعسكرت تجاه الجانب الغربي للمدينة، وذلك في يوم الأحد الموافق ٢٠ سبتمبر ١١٨٧م/ ١٥ رجب ٥٨٣ هـ^(٥٦). وعندما بدأ صلاح الدين في هجومه عليها، لاقى صعوبة كبيرة في تنفيذ ذلك، حيث وجد أن هذا الجانب قوى التحصين ومشحوناً بالمقاتلين من قبل باليان دي إيبيلين^(٥٧). فأخذ صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة ليعثر على المكان الملائم للهجوم المرتقب حيث تكون مواطن الضعف في أسوارها، حتى استقر رأيه أخيراً على يركز هجومه على الجهة الشمالية^(٥٨).

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ سبتمبر ١١٨٧م/ ٢١ رجب ٥٨٣ هـ؛ قام صلاح الدين بشن هجوم مفاجيء على شمال المدينة^(٥٩)، وأخذ المسلمون يرسلون سيلاً منهمراً من السهام على أسوارها، مما أجبر المدافعين على التراجع عن الأسوار، وسمح للمسلمين بالتغيب في السور، وخلال يومين أحدث

(٥٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٤ ؛ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " الجزء الثامن في ثلاثة أقسام - ديدر أباد ١٩٥١م ، ق 1 ، ص ٣٩٧ ؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ثلاثة عشر جزءاً ، بيروت ١٩٦٦ م ج ١٢ ؛ ص ٣٢٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، اثني عشر جزءاً ، القاهرة ، ١٩٢٩-١٩٥٦ م ج ٦ ، ص ٣٦ ؛ العليمي : الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل ، جزءان ، تقديم محمد بحر ، العراق ١٩٨٦م ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٥٥) Setton(K.M.), *A History of The Crusaders* , Vol.1,(New York-1955), P.613

(٥٦) الذهبي : دول الإسلام ، جزءان في مجلد تحقيق فهد شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤ م ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ بييرس الدودار : زبدة الفكرة في تاريخ أهل الفكرة ، الجزء التاسع ، تحقيق زبيدة محمد عطا ، القاهرة ب ت . ، ص ٤ .

(٥٧) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ . Michoud,J.F. , *Historia des Crusades*, Tom2,(Paris-1816) ,P.52.

(٥٨) ابن شداد : النوادر بالسلطانية ، ص ١٥٨ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(٥٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٥ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٩١ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

المسلمون خمسين فتحة تقريباً في السور^(٦٠). وفي صباح ٢٩ سبتمبر/ ٢٤ رجب أحدثت القوات الإسلامية ثغرة كبيرة في السور.

وعلى الرغم من الضرر الذي وقع، فإنه كان لا يزال هناك أمل في إمكانية الدفاع عن المدينة بواسطة الإصلاحات التي تمت ما بين الجدران الداخلية والسور الرئيسي، وقام باليان حاكم المدينة والمسئول الأول عن الدفاع عن المدينة بتقديم مكافآت مجزية لهؤلاء الذين يدافعون في ذلك الجانب^(٦١).

ونتيجة للتطورات الأخيرة في الأحداث، اقترح بعض الصليبيين المحاصرين داخل المدينة، القيام بهجوم مرتد ومباغت ضد المسلمين، حتى ولو أدى ذلك إلى فقدانهم حياتهم نتيجة ذلك، غير أن باليان دى إيبيلين حاكم المدينة والمتولى أمورها، عارض ذلك، ورأى أنهم إن فقدوا أرواحهم تركوا ورائهم عائلاتهم باعتبارهم أسرى لدى المسلمين، وليس في مقدوره أن يوافق على هذا الأمر المنافي للعقيدة، وأيده في ذلك البطريرك هرقل، ولاشك أن باليان كان على صواب في هذا الرأي. لما أدركه من حماقة هذا الفعل المتهور^(٦٢).

أخذت الصعوبات تتوالى وتقف في وجه باليان، وتمثل أخطرها في اتساع رقعة الخلاف بين الطوائف المسيحية داخل مدينة بيت المقدس نفسها. ففي تلك الفترة، كان الجزء الأكبر من سكان المدينة يتكون من المسيحيين الشرقيين الذين يعتنقون المذهب الأرثوذكسي، والذين كانوا يشعرون آنذاك بعدم ارتياح للمسيحيين الغربيين ذوى المذهب الكاثوليكي، حتى أن بعضهم نادى بتفضيل الحكم الإسلامي على السيطرة الكاثوليكية^(٦٣). ومكمن الخطورة في هذا الأمر، هو أنه حدثت بعض الاتصالات السرية، والتي تمت بين المسيحيين الشرقيين والمسلمين المحاصرين للمدينة، والتي يرى أحد المؤرخين المحدثين أن المسيحيين الشرقيين تعهدوا فيها بفتح أبواب المدينة للمسلمين متى بدأ الهجوم عليها، مما زاد من حجم المعاناة التي كان يواجهها باليان دى إيبيلين آنذاك، فيما يخص استعداداته في الدفاع عن المدينة المقدسة، ويرى المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه R.Grousset أن ازدياد حدة الشقاق

(٦٠) Duggan ,A. , *History of The Crusades*, (London-1963) ,P.164

(٦١) Prawer J, *The Jerusalem The Crusaders Captured a Contrubution to The Medieval Topogrophy of The City in Crusade and Settlement* , Ed .by Eddbry , University College Cardiff, Press,(Cardiff-1985), P.13.

Ernoul, (٦٢)

Chronique,P.217.

(٦٣) Eracles, *L'estoire*,P.86; CF.also: Runciman,S., *A History of the Crusades*,.Vol.2,P.465.

بين الطوائف المسيحية ، كان من أولى أسباب سقوط المدينة سريعاً ، بجانب قوة صلاح الدين والهيمنة الإسلامية على المنطقة في ذلك الوقت ^(٦٤).

أثناء الحصار عقد الصليبيون المحاصرون بالمدينة وعلى رأسهم باليان، كذلك عقد الصليبيون خارج المدينة، أمالاً كبيرة على وصول نجدة من الغرب الأوروبي تنقذ المدينة من السقوط. وقد تناول عموري بطريرك إنطاكية في خطابه إلى الملك الإنجليزي هنري الثاني Henry II (١١٥٤-١١٨٩م/ ٥٤٩-٥٨٥هـ) ^(٦٥)، يسرد عليه تفاصيل حصار بيت المقدس، ويلتمس منه إرسال النجدة العاجلة من الغرب، ولكن تلك المحاولات ضاعت هباء حيث إن الغرب كان في ذلك الوقت غير مستعد بعد للقيام بعمل سريع من هذا القبيل ^(٦٦). مما زاد من حجم المسؤولية الملقاة على عاتق باليان دي إيبيلين.

مع ازدياد تدهور الأوضاع داخل المعسكر الصليبي قام باليان بإرسال وفد من كبار المدينة إلى صلاح الدين، يطلبون منه الأمان، وتسليم المدينة بشرط احترام من فيها من الصليبيين، والسماح لمن يشاء منهم بمغادرتها ^(٦٧)، ولكن صلاح الدين رفض ذلك، وأصر على تسليم المدينة بحد السيف، وقال لرسل الصليبيين: "لا افتحها إلا عنوة، كما افتتحتوها أنتم عنوة، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته، كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين من قبل" ^(٦٨).

ما أن علم باليان بفشل الوفد الصليبي، حتى أرسل يطلب مقابلة صلاح الدين، ليتفاوض معه بنفسه في أمر المدينة المقدسة ، فوافق صلاح الدين على ذلك ^(٦٩). وعندئذ طلب من صلاح الدين الحصول على الأمان بالمدينة . فلم يجبه إلى ذلك، بل " واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم

Grousset,R.,op.cit.,Vol.2,P.812.

(٦٤)

^(٦٥) هنري هو ابن ماتيليدا Matilda وريثة الملك الإنجليزي هنري الأول، وجيفري الخامس Geoffery V كونت انجو Anjou ، وعرف عنه صراعه المستمر مع ملوك فرنسا لويس السابع ، وفيليب أوغسطس ، كذلك دخل في صراع مع رجال الدين في مملكته وأشهرهم توماس بيكييت رئيس كاتدرائية كانتريري ، وقد توفي هنري عام ١١٨٩م، وخلفه على العرش الإنجليزي ابنه ريتشارد كونت بواتو المعروف بريتشارد قلب الأسد، للمزيد من التفاصيل انظر:

زينب عبد المجيد عبد القوي: الانجليز والحروب الصليبية (١١٨٩-١٢٩١م) عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٥٦-٥٧؛ محمد مؤنس عوض: معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، مكتبة الاداب-القاهرة ٢٠١٥م، ص ٤٥٣.

Le Roulx ,J.D., ed : *Cartulaire Général da L' Ordre des Hospitoliers S. Jean de* ^(٦٦)
Jerusalem, 4Vols, (Paris 1849-1908) , Tom I ,No . 833, P.519.

Ernoul, *Chronique*,P.218; CF.also: Grousset , op. cit.,P.813. ^(٦٧)

^(٦٨) ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 12 ، ص ٣٢٤.

^(٦٩) بسام العسيلي : الأيام الحاسمة، ص ١٢٨.

يرحمه" ^(٧٠). وأعلن صلاح الدين أنه سبق أن أقسم بأنه سوف ينال بيت المقدس بحد السيف، ولن يحلها من هذا اليمين، غير إذعان المدينة بدون قيد أو شرط. وأخذ يذكر باليان بما اقترفه الصليبيون من المذابح عام ١٠٩٩ م / ٥٩٢ هـ، عندما استولوا على المدينة. ^(٧١)

وفى أثناء التفاوض مع صلاح الدين كان باليان قد اتخذ الاستعدادات لرد هجمات صلاح الدين في حالة فشل مساعية الرامية إلى الصلح، ومما يدل على ذلك أنه أثناء التفاوض حاول المسلمون اقتحام المدينة، ولكن القوات الصليبية نجحت في صددهم ^(٧٢).

وإزاء سوء أحوال الصليبيين داخل المدينة، توجه باليان إلى صلاح الدين مرة أخرى ^(٧٣)، ولكن عندما وجده لا يزال مصرًا على موقفه لجأ إلى المزيد من الترغيب والتهديد فقال لصلاح الدين: " إذ رأينا الموت لا مفر منه فوا الله لنقتل أبناءنا ونساءنا، ونحرق ديارنا وأموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تتعمون منها بدينار، ولا درهماً ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك، أخبرنا قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، وبعد ذلك لن تجدوا أية فائدة من الاستيلاء على المدينة" ^(٧٤).

وصفوة القول إن الظروف قد أرادت أن يقف باليان، موقف الحامى الأول للعاصمة الصليبية في المشرق، وأن يقف المتحدى أمام أعظم قادة الدولة الإسلامية على مر عصورها، والمتتبع لحوار باليان دى يرى أن هذا الرجل يحمل الكثير من مبادئ الفروسية في العصور الوسطى، وكيف أنه يستطيع أن يضحي بأى شيء في سبيل عزة النفس والموت بكرامة عن الوقوع في الأسر، بل أن يهدد بتدمير المدينة المقدسة بما فيها من مقدسات عظيمة، وذلك لأهل الأرض كافة، ولكن كان في الجانب الآخر صلاح الدين الأيوبي الذي كان بمثابة أسطورة العصور الوسطى في الشرق والغرب معا بلا منازع، والذي مثل أخلاق فارس العصور الوسطى بلا منازع.

^(٧٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٦ .

^(٧١) العماد الكاتب : الفتح القسى في الفتح القدسى ، ص ١٢٦ ؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج

2، ص ٩٥

و كذلك:

CF.Ernoul, *Chronique*, PP.214-215..

Eracles , *L'estoire* ,P.86; CF.also:Jashua Prawer, op.cit.,P.13. ^(٧٢)

^(٧٣) مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، جزءان في مجلد واحد

، دارالرهبان الفرنسيكان 1865 م ، ج 1 ، ص ٩٢ .

^(٧٤) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ١٢٧

عند ذلك كشف صلاح الدين الأيوبي عن مهارته الدبلوماسية من خلال تعامله مع ذلك الموقف الصعب، ليعقد مجلسًا استشاريًا فيه كبار قادته في الأمر "وحاورهم في السر والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم واستكشف خفايا سرائرهم وفاوضهم في المصالحة المريحة، وقال إن الفرصة قد حانت علينا انتهازها".^(٧٥)

وعندما أدرك صلاح الدين أن سلطته أصبحت وطيدة، وكان مستعدًا أن يكون كريمًا وبرهن على أنه رجل دولة حكيم وأصبح ما قرره سببًا في تزيين تاريخه في الغرب فيما بعد، بشتى الأساطير التي تظهر شهامته الغير عادية، وأحب ألا تتعرض المدينة المقدسة لأي ضرر، فوافق على التفاوض^(٧٦). ولكن بمهارة الدبلوماسي البارع دون التفريط في الثوابت التي يؤمن بها. وهكذا قبل صلاح الدين أخيرًا الدخول في مفاوضات الصلح، وهو الدور الذي وقع عبء نجاحه على ممثل الجانب الصليبي في تلك الفترة، وهو باليان الذي تجلّى فيه مدى مهارته في المناورات السلمية التفاوضية، والتي يعتقد الباحث أنه حقق فيها نجاحًا كبيرًا وأنقذ الصليبيين من كارثة محققة.

في بداية الأمر حدد صلاح الدين في مفاوضاته مع باليان مقدار الفدية بأنها سوف تكون متساوية للفقير والغنى على حد سواء، الرجل عشرون دينارًا والمرأة عشرة دنانير، والطفل خمسة دنانير، إلا أن باليان طلب من صلاح الدين تخفيض تلك القيمة معتمدًا في ذلك على مكانته لدى صلاح الدين^(٧٧).

بالفعل وافق صلاح الدين على أن يدفع الرجل عشرة دنانير، وخمسة للمرأة، ويدفع الطفل دينارًا واحدًا^(٧٨). وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة الكثير من الفقراء الذين لا يستطيعون دفع هذه الفدية، ومن الأطفال الذين فقدوا آباءهم، أما في الأسر أو في المعارك، وكذلك من النساء اللاتي فقدن

^(٧٥) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ١٢٧-١٢٨.

^(٧٦) ميخائيل زابوروف : الصليبيون في الشرق ، ترجمة إلياس شاهين ؛ دار التقدم ، موسكو 1986 - م ، ص ١٩٣. بينما يرى المؤرخ بينفنستي أن من بين أسباب موافقة القائد الإسلامي على عرض باليان ، هو أنه أيقن أن تهديد باليان لم يكن تهديدًا أجوفًا. انظر:

CF.Benvenisti,op.cit.,P.45

Eracles , *L'estoire*,P.91.

Ernoul, *Chronique*,P.222

(٧٧)

(٧٨)

أزواجهن^(٧٩). وأوضح بالبيان لصالح الدين أنه يجب عليه طالما أصبح هو في الوضع الأقوى أن يكون أكثر رحمة، موضحاً له الوضع السيء في المعسكر الصليبي آنذاك^(٨٠).

وأخيراً اقترح بالبيان على صلاح الدين أن يقوم بدفع مبلغ إجمالي للفدية، ورضى صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع الفقراء الموجودين بالمدينة، وعددهم عشرون ألفاً تقريباً^(٨١). غير أن بالبيان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم، وتوسل إلى صلاح الدين، واقترح عليه أن يطلق سراح سبعة آلاف أسير كمرحلة أولى، فطلب صلاح الدين خمسين ألف دينار. وبعد طول مفاوضات وإلحاح من جانب بالبيان وافق صلاح الدين على أن تكون الفدية مقدارها ثلاثين ألف دينار^(٨٢). وأمهلهم أربعين يوماً لفداء أنفسهم. ومن يبق بالمدينة بعد هذه المدة يصبح أسيراً للمسلمين^(٨٣).

وأعلن بالبيان أنه سوف يعود إلى المدينة للتشاور مع بقية القادة فيما توصل إليه مع صلاح الدين، وإن كان هذا الإجراء يعتبر إجراءً شكلياً لأن بالبيان كان قد اتفق بالفعل مع صلاح الدين في أمر تسليم المدينة، حيث كانت مرتبة بالبيان عند الصليبيين في تلك الفترة " تقارب مرتبة ملك " ^(٨٤).

عاد بالبيان إلى القدس وتمكن من إقناع القادة ورجال الدين بها بما توصل إليه من اتفاق مع صلاح الدين، وأمرهم بالبيان بإلقاء السلاح^(٨٥). وقام بالبيان بتسليم مفاتيح المدينة إلى صلاح الدين الذي دخلها في صباح يوم الجمعة ٢ أكتوبر ١١٨٧م / ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ^(٨٦). ويتضح لنا عظمة هذا

Michel Le Syrien , *Le Chronique de Michel Le Syrien*, ed .R.H.C.Dou .Arm , t.1, ^(٧٩)

Trans By Chabot Paris-1905) , P.399.

Jean Richard , *The Latin Kingdom*, Vol.1, P.180 ^(٨٠)

^(٨١) إبراهيم طرخان : الناصر صلاح الدين و تحرير القدس ، القاهرة ، ب . ت . ، ص ١٠٥ .

^(٨٢) Ernoul, *Chronique*, P.223; Eracles , *L'estoire*, P.92

^(٨٣) Ernoul , *Chronique*, Loc.cit.

في حين حدد هرقل مهلة صلاح الدين لإخلاء المدينة بخمسين يوماً

.CF. Eracles , *L'estoire*, P.94

^(٨٤) ابن الأثير : الكامل، ج 10 ، ص 154

^(٨٥) Ernoul, *Chronique*, P.224; CF.also

Grousset, op.cit., Vol.2 P.813; Runciman, S., *A History of the Crusades*, Vol.2, P.466.

^(٨٦) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٢٨؛ ابن الأثير : الكامل : ج ، ١٠ ص ١٥٦؛ أبو شامة :

الروستين في أخبار الدولتين ، ج ، 2 ص 96؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ، 2 ص ٢١٥؛ الذهبي : دول

القائد المسلم عند دخوله المدينة فلم يعتد على أى من المقدسات المسيحية بها وإذا قارنا ما بين سلوك المسلمين إزاء الصليبيين عندما استرد صلاح الدين المدينة بالسلوك الصليبي، وعندما استولوا على المدينة من قبل، نجد أن المسلمين المنتصرين اشتهروا بالكثير من التسامح والعفو^(٨٧).

واجه باليان صعوبة فى دفع الفدية المطلوبة، فبعد أن جمع كل ما فى الخزانة لذلك^(٨٨)، رفضت جماعتا فرسان الاسبتارية Hospitallers والداوية Templiers المشاركة فى ذلك، كما أن البطريك هرقل وبقية رجال الدين رفضوا أيضاً^(٨٩). واستطاع عن طريق هذه الأموال أن يفتدى العديد منهم. خاصة الذين خرجوا بالفعل من أبواب المدينة، أما البقية فقد وقعوا فى الأسر. واستطاع باليان بفضل علاقاته الطيبة مع صلاح الدين أن يسمح لخمسمائة من الفقراء بالخروج دون دفع الفدية^(٩٠). ولا شك أن ذلك يبرز دور باليان وسياسته الحكيمة التي تمكن بفضلها من إنقاذ الصليبيين من أن تحل بهم الكارثة تماثل ما فعله الصليبيون بالمسلمين عند اقتحام المدينة عام ١٠٩٩م.

غادر الصليبيون المدينة المقدسة على شكل ثلاث فرق، تولى قيادة الفرقة الأولى الداوية، بينما تولت الإسبتارية الفرقة الثانية، أما الفرقة الثالثة فقد قادها باليان دي إيبيلين والبطريك هرقل. والتزم صلاح الدين بما وعد به باليان من قبل، وهو تأمينهم وحمايتهم أثناء مرورهم بالأراضي الإسلامية، وقد تم بالفعل ذلك، وكان من الملاحظ أن المؤرخ الصليبي أرنول Ernoul، وهو المعاصر للأحداث، ذكر العديد من التفاصيل عن خروج الصليبيين من بيت المقدس تحت قيادة باليان دي إيبيلين، بينما ذكرها تاريخ هرقل L'estoire Eracles دون أن يذكر اسم باليان صراحة^(٩١).

وكان لقاء القائدين معا أمام القدس سواء عسكريا أو سلميا، بمثابة إنتصار للتسامح والعفو فى تلك الحقبة التاريخية، زمن الصراع المرير والمشتعل بين الصليبيين والمسلمين، وعلى الرغم من سقوط المدينة فى النهاية فى قبضة صلاح الدين. فقد تمكن الأخير ومعه باليان من إنقاذ سكانها، بل وأن يتم السماح لعدد كبير بالخروج دون دفع الفدية نظراً للعلاقة الطيبة التي جمعت الأمير الصليبي باليان والقائد المسلم

الإسلام، ج ٢، ص 95؛

العليمي : الأنس الجليل، ج 1، ص ٢٩٢.

(٨٧) محمد محمد عبد الحميد فرحات : القدس بين غزو الصليبيين و استرداد المسلمين - دراسة مقارنة للسلوك فى ضوء المصادر الغربية - دار الجميل للنشر والتوزيع و الإعلام ، القاهرة 1999 م.

(٨٨) Ernoul, *Chronique*, P.225

(٨٩) Eracles , *L'estoire*, P.95P; CF.also: Grousset, op.cit., Vol.2, P.814.

(٩٠) Ernoul , *Chronique*, P.226; Eracles , *L'estoire*, PP.96-97; CF .also: Grousset, op.cit., Vol.2 P.815.

(٩١) Ernoul , *Chronique*, PP.203-231; Eracles , *L'estoire* , P.99; CF .also: Grousset, op.cit., Vol.2, P.818; Runciman, S., *A History of the Crusades*, Vol.2, P.467.

صلاح الدين الأيوبي، ليتوجه هؤلاء الصليبيون إلى مدينة صور بصفة خاصة، مما سيكون له نتائج على المدى القريب.

أما عن علاقة صلاح الدين مع باليان دي إيبيلين عقب ما حدث أمام مدينة القدس عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ ، فقد كان من المعروف أن الوضع قد ازداد سوءاً داخل الكيان الصليبي، إذ أن المنازعات الحزبية التي أثارت الانقسام في السنوات الأخيرة في مملكة بيت المقدس - والتي لم يتم تسويتها إلا قبل بضعة أسابيع من معركة حطين بفضل لباقه باليان دي إيبيلين و كياسته - ما لبثت أن اندلعت بعد كارثة حطين و فقدان المدينة المقدسة ، وألقى أنصار الملك جي اللوم على عاتق ريموند كونت طرابلس، واعتبروه مسئولاً عن هذه الانتكاسات، بينما وجه أصدقاء ريموند من بيت إيبيلين ومعظم النبلاء المحليين اللوم لأسباب معقولة إلى الملك جي، وما اشتهر به من الضعف، وإلى ما كان للداوية وبعض القادة من سلطان عليه^(٩٢).

في ظل الانقسامات التي أعقبت سقوط القدس، وضياح معظم إقطاعات النبلاء، ازدادت حدة الخلافات فيما بينهم. و ظهر كونراد دي مونتفورات Conarad de Montforrat^{٩٣}، والذي لم يستطع باليان دي إيبيلين الوقوف أمامه، خاصة بعد نجاحه في الدفاع عن صور والاحتفاظ بها في هذه الفترة الحرجة^(٩٤). و فقد جي أحقيقته في عرش المملكة، وذلك بعد وفاة زوجته الملكة سبيلا عام ١١٩٠م/ ٥٨٦

(٩٢) Ernoul, *Chronique*, P.242; CF.also:Grousset , op.cit.,Vol.3,PP.40-41

(٩٣) كونراد دو مونتفورات، ابن وليم الثاني مركز مونتفورات بشمال إيطاليا، وكان على صلة قرابة بآل كابيه الأسرة الحاكمة في فرنسا، وكانت والدته كونراد أختا غير شقيقة لوالد الإمبراطور الألماني فريدريك بارباروسا، كما كان كونراد عما لبلدوين الخامس ملك بيت المقدس السابق وكونراد ممن أشهر محاربي الغرب، ذهب إلى القسطنطينية حيث ساعد الإمبراطور إسحق الثاني (١١٨٥-١١٩٥م/ ٥٨١-٥٩٢هـ) في إخماد ثورة اندلعت ضده، وتزوج من شقيقة الإمبراطور البيزنطي، الذي ما لبث أن تشكك في نوايا كونراد وساعت العلاقة بينهما واضطر كونراد لمغادرة القسطنطينية ومعه فرسانه الإيطاليون ورسى في مرفأ عكا، حيث علم أنها سقطت في أيدي صلاح الدين، فتظاهر بأنه تاجر من الغرب حتى تمكن من الإبحار إلى مدينة صور، انظر : ذيل وليم الصوري: ترجمة / حسن الحبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٢ ص ٩٧-٩٩. وعن أثر ما حدث لكونراد في القسطنطينية على علاقة بيزنطة بالغرب الاوروبي ،انظر: ياسر مصطفى عبد الوهاب: الزواج السياسي وأثره في علاقات بيزنطة بالغرب الاوروبي (٩٧٢-١٢٠٤م) ، مجلة كلية الاداب، جامعة بنها ٢٠١٠م، ص٤٧٦.

(٩٤) Ernoul, *Chronique*, PP.242-244; Eracles , *L'estoire* ,PP.140-144

هذا و قد أشارت المصادر العربية إلى استماتة كونراد في الدفاع عن مدينة صور ، انظر: ابن الأثير : الكامل ، ج١٠، ص ١٥٩؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص١٣٦

هـ، وأصبحت الأميرة إيزابيلا صاحبة الحق الشرعي في ذلك^(٩٥). وأراد باليان دي إيبيلين أحد خصوم جي الرئيسيين استغلال هذه الفرصة للتخلص منه^(٩٦). ولكي يسهل على كونراد دي مونقترات أن يصبح المرشح الرئيسي لتولي حكم المملكة، فقد عمل على طلاق إيزابيلا من زوجها همفري الثالث. وأتم زواجها من كونراد، وهكذا أسهم باليان في وصول كونراد إلى عرش المملكة (٩٧). وكان مما سهل على باليان مهمته السابقة أن زوجته ماريا كومينا أم إيزابيلا، كانت من المؤيدين لذلك العمل (٩٨). وهذا مما يؤيد دور باليان دي إيبيلين سواء من الذكور أو الإناث في تقرير أمور المملكة، ومما لا شك فيه أن هذا الزواج الذي يندرج في إطار الزواج السياسي سوف يدعم مكانة باليان دي إيبيلين، وذلك عن طريق ابنة زوجته ملكة بيت المقدس.

على أية حال، فبعد أن ساهم باليان في إتمام زواج كونراد وإيزابيلا، لجأ العروسان إلى صور، حيث أنجبت إيزابيلا في السنة التالية أسمتها ماريا تيمناً باسم جدتها زوجة باليان^(٩٩) وكان كونراد مصيباً حينما لم يشأ أن يتخذ لقب الملك حتى يتم تتويجه مع زوجته، غير أنه لم يرض بالعودة إلى المعسكر الصليبي، طالما أن جي دي لوزنيان لازال مصرّاً على أنه الأحق بالعرش^(١٠٠). وأثناء ذلك وصل كل من الملك الفرنسي فيليب أوغسطس Philip Augusts (١١٨٠-١٢٢٣ م / ٥٧٦-٦٢٠ هـ) ، والملك الإنجليزي ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩ م / ٥٨٧-٥٩٧ هـ) إلى الساحل الشامي فيما

(٩٥) Grousset, op. cit., Vol. 3, P. 41.

(٩٦) Eracles , *L'estoire*, PP. 151-152; CF. also: Grousset , op. cit., Vol. 3, P. 42.

(٩٧) Ernoul, *Chronique*, PP. 267-268

ومن الملاحظ أن أرنول أفاض في الحديث عن صحة الإجراءات القانونية الخاصة بمسألة طلاق إيزابيلا ، ثم زواجها ، مما يؤيد صحة الأعمال التي قامت بها عائلة إيبيلين حيال هذا الموضوع.

(٩٨) Eracles , *L'estoire*, P. 153

(٩٩) Ernoul, *Chronique*, P. 263; Eracles , *L'estoire*, P. 154.

و من الملاحظ أن أمبرواز تحامل بشدة على كونراد و باليان و الملكة الأم ماريا كومينا ، إذ اعتبر أن ما فعلوه كان مؤامرة من أجل إقصاء جي دي لوزنيان - العدو القديم لأسرة إيبيلين - بل وصل الأمر أن قيام أمبرواز بتنظيم قسيده في هجاء كونراد.

CF. Ambrois, *The Crusade of Richard Lion Heart* , (New York-1941), PP. 110-112

(١٠٠) رأى البارونات وعلى رأسهم باليان دي إيبيلين أن كونراد هو الأحق بالعرش، بعد أن رأوا أنه وحده هو الذي أنقذ صور من السقوط في أيدي صلاح الدين الأيوبي، و أن جي بعد كارثة حطين لا يصلح لقيادة المملكة، و بالرغم من ذلك فقد أصر جي و بعض أنصاره على أنه لا يزال ملكاً، وأن كونراد دخيلاً على صليبي المشرق و للمزيد من التفاصيل:

CF. Ernoul, *Chronique*, PP. 256-257; Eracles , *L'estoire*, PP. 123-124; Ambrois, *The Crusade of Richard Lion - Heart*, Trans from the Old French By Merton Jerome Hubert. with notes and documentation By J. L., LaMont, (New York, 1941), PP. 71-73.

يعرف بالحملة الصليبية الثالثة ، وذلك في النصف الأول من عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ^(١٠١). حيث كان الصراع لايزال قائماً حول عرش المملكة الاسمية، وبات واضحاً أن الملك الفرنسي يساند كونراد، بينما ساند الملك الإنجليزي جي^(١٠٢). ولكن ترك الجميع الخلافات مؤقتاً، خاصة بعد أن احتشدت الجيوش الصليبية مجتمعة، وقررت استرداد الأراضي المفقودة، وهو بدأ بالفعل باستيلائهم على عكا في ١٢ يوليو ١١٩١م / ١٧ جمادى الآخر ٥٨٧هـ^(١٠٣). ومن المرجح أن باليان دى إيبيلين شارك تلك القوات في تلك المهمة الكبيرة، حيث لم يتخلف أحد من نبلاء المملكة عن هذا الحدث الهام لصليبي الشرق على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين خلال تلك الفترة.^(١٠٤)

استمرت الحشود الصليبية في الزحف جنوباً بمحاذاة الساحل الشامي تحت قيادة الملك ريتشارد^(١٠٥). الذي قام بتنظيم قواته على أساس تولى الداوية اليمينة، ثم الإسيبتارية في الميسرة، أما قلب الجيش الصليبي، فتولاه الملك بنفسه ومعه قوات الحملة القادمة من الغرب، وخلفهم كانت قوات البارونات المحليين^(١٠٦). وحدث في الطريق بعض الاشتباكات مع القوات الأيوبية، إلى أن استطاع

(١٠١) Ambrois, *The Crusade of Richard Lion – Heart*, P.116

وكذلك انظر: ابن الأثير : الكامل ، ج ، ص ٢٠٤؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٦١؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢، ص ١٨٣.

(١٠٢) أبدى الملك ريتشارد ترحيباً بمساندة جي ، لاسيما و أن آل لوزينيان كانوا أفضال إقطاعين للملك الإنجليزي في بواتو باعتبارها إحدى ممتلكات الملك الإنجليزي في تلك الفترة ، بالإضافة إلى زواج جي من سيبلا التي تمت بصلة القرابة إلى ريتشارد . على حين أن الملك فيليب ساند كونراد ، وذلك بهدف الإطاحة بجي التابع المخل للملك الإنجليزي ، و ذلك من منطلق الحد من النفوذ الإنجليزي في تلك الفترة في الأراضي المقدسة.

CF.Geoffery de Vinsouf, *Itinerary of Richard I and other to The Holy Land* (London– 1848) P.217; Ambrois, *The Crusade of Richard Lion – Heart*, PP.93–94;

CF.also:Grousset, op.cit.,Vol.3,P.48.

(١٠٣) للمزيد من التفاصيل عن سقوط عكا، انظر:

CF. Ernoul, *Chronique* ,PP.274–275; Eracles , *L'estoire*,PP.175–176.

وكذلك: ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠، ص ٢٠٥؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢، ص ١٩٠–١٨٤؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦، ص ٤٥

(١٠٤) Ernoul, *Chronique* ,P.275

(١٠٥) غادر الملك الفرنسي فيليب أغسطس الأراضي المقدسة متجها نحو بلاده، و ذلك عقب الاستيلاء على عكا، متعللاً بسوء حالته الصحية تاركاً عبء مهمة قيادة الحملة إلى الملك ريتشارد.

CF. Geoffery de Vinsouf, *Itinerary of Richard I*,P.219; Ambrois, *The Crusade of Richard Lion – Heart*,PP.220–221; CF.also:Grousset, op.cit.,Vol.3,P.52.

(١٠٦) للمزيد من التفاصيل عن تنظيم الجيش الصليبي:

الجيش الصليبي إلحاق هزيمة قاسية بالأيوبيين في موقعة أرسوف^(١٠٧). وإذا أدرك صلاح الدين أن وجهة الصليبيين التالية سوف تكون بيت المقدس، لذا أعمل التخريب في هذه المدن الواقعة في طريق الحملة مثل: قيسارية وعسقلان واللد، وأخيرًا الرملة إحدى الممتلكات السابقة لاسرة باليان إيبيلين^(١٠٨). والسؤال الذي يثار في هذا المقام: هل اشترك باليان إيبيلين في تلك المناوشات الحربية ما بين الصليبيين والمسلمين، أو بمعنى آخر هل ألتقى عسكريا ضد صلاح الدين -عقب اللقاء الذي تم في مدينة القدس- وخاصة في معركة أرسوف؟ في حقيقة الأمر يصعب الإجابة على مثل هذا التساؤل، خاصة وأن المصادر المعاصرة لتلك الأحداث لم تشر صراحة إلى وجوده ضمن القوات الصليبية، إلا أنه من المرجح أنه كان من قوات البارونات المحليين المتواجدين خلف قوات الملك ريتشارد.

على أية حال، لم تلبث الأحداث أن جمعت بين صلاح الدين وبيالان بعد خمسة سنوات من اللقاء الشهير بينهما، وذلك عندما جرت بعض المفاوضات والاتصالات ما بين الملك الإنجليزي ريتشارد وصلاح الدين^(١٠٩). وتفاصيل ذلك أنه أثناء ذهاب مبعوث الملك الإنجليزي، وكان يدعى ستيفن تيرنهام Stephen Turnham إلى بيت المقدس لمقابلة صلاح الدين لمواصلة مفاوضات الصلح - وذلك في شهر فبراير ١١٩٢م / صفر ٥٨٨هـ - شاهد اثنين من أشهر أنصار كونراد يخرجان من المدينة، وكان هذان المبعوثان هما باليان دي إيبيلين ورينالد سيد صيدا، وكانا يحملان رسالة من قبل كونراد إلى صلاح الدين، تدعوه لإجراء مفاوضات صلح تنائية بينهم، مما أُنذر بخطورة الموقف وحدث انشقاق في المعسكر الصليبي^(١١٠). وبالرغم من أن مفاوضات صلاح الدين مع كونراد كانت موجودة بالفعل، إلا أن

CF.Ambrois, *The Crusade of Richard Lion – Heart, Trans from the Old French By* Merton Jerome Hubert. with notes and documentation By J.L., LaMont, (New York, 1941), PP.160-165.

^(١٠٧) جرت موقعة أرسوف في 7 سبتمبر 1191م / 14 شعبان ٥٨٧هـ ، و للمزيد من التفاصيل عنها. انظر : محمد مؤنس عوض: دراسات في الصراع الإسلامي - الصليبي " معركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧هـ " عين للطباعة والنشر ١٩٩٧م.

^(١٠٨) Geoffery Vinsof , *Itinerary of Richard I*, PP. 222-223; Roger of Wendover, *Flowers of History*, trans. By J.A. Giles, 2 vols., (London, 1849) op.cit., Vol.2, P.107.

وكذلك : ابن الأثير : الكامل ، ج ، 10 ص 207-210؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ، 2 ص ٢٦٥؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ص ٤٦. ٤٧

^(١٠٩) Ambrois, *The Crusade of Richard Lion – Heart*, PP.330-331.

^(١١٠) Archer T.A., *The Crusade of Richard I* "1189- 1192", (London- 1912) , P.2

23

ومن الملاحظ أنه تحامل كثيرًا على باليان دي إيبيلين نتيجة اشتراكه في تلك المفاوضات بجانب كونراد، وليس جانب الملك ريتشارد، بل أنه وصف جهود باليان ، بأنها " مثل الغبار يلقي به رجل في مهب الريح. "

قدوم باليان دي إيبيلين واشترائه فيها كان مؤشراً بفشل مفاوضات الملك ريتشارد، نظراً لأن باليان كان فارساً يحظى بتقدير كبير عند صلاح الدين منذ أحداث فتح بيت المقدس^(١١١).

لم تلبث أن تطورت الأحداث سريعاً، وتم تتويج كونراد دي مونتفرات ملكاً على مملكة بيت المقدس الاسمية^(١١٢). فكان ذلك انتصاراً للجبهة التي ينتمي إليها باليان إيبيلين. ولكن لم يمض على اختياره ملكاً عدة أيام حتى تم اغتياله على يد اثنين من الباطنية يوم الثلاثاء ٢٨ أبريل ١١٩٢م / ١٣ ربيع آخر ٥٨٨ هـ^(١١٣). وقد تعددت الآراء حول مقتل كونراد والمحرض الرئيسي وراء ذلك^(١١٤). والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا: ما الأثر الذي تركه مصرع كونراد على باليان إيبيلين؟ مما لا شك فيه أن باليان كاد أن يتعرض لهزة عنيفة نتيجة ذلك، خاصة وأنه كان أقرب أنصاره آنذاك — إلا أنه وكعادته دائماً — تأقلم مع الأحداث بسرعة مذهلة، وذلك بالانضمام على الفور تحت جناح الملك ريتشارد^(١١٥). هذا ويعتقد الباحث أن يكون الأخير هو الذي سعى لأن يضم باليان دي إيبيلين لما له من خبرة ودراية بشئون المملكة، وعلاقته الطيبة بصلاح الدين الأيوبي التي قد تساعد ريتشارد فيما يرمى إليه في تلك الفترة.

وبالرغم من أن باليان لم يشارك بشكل جدي وواضح في الأحداث العسكرية للحملة الصليبية الثالثة بما يتناسب مع مكانته في المنطقة، إلا أن دوره ظهر بصورة واضحة في المعاهدة التي تمت ما بين المسلمين والصليبيين في سبتمبر ١١٩٢م / شعبان ٥٨٨ هـ، وهو ما يعرف بصلح الرملة^(١١٦). وذلك

^(١١١) ابن شداد: المصدر السابق، ص 199؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص 192-193. وأيضاً:

Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, P.133.

^(١١٢) Ernoul, *Chronique* P.291.

^(١١٣) Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, PP.334-336; CF. also :

Archer T.A., *The Crusade of Richard I*, PP.229-232.

و للمزيد من التفاصيل عن جماعة الباطنية ومبادئها وعلاقاتها بالصليبيين ، انظر :

Hellert de *L'ordre des Assassins* , (Paris-1833) , PP.1-50.

^(١١٤) جرت الرواية على أن القاتلين مكثا في مدينة صور بعض الوقت ينتظران الفرصة المناسبة والملائمة لتنفيذ جريمتهم، بل أنهما قبلتا التصير والدخول في المسيحية بصفة ظاهرية وخادعة. وقد كان كل من كونراد نفسه وبالبيان دي إيبيلين كفيلاين وضامين لهما. وللمزيد من التفاصيل عن مقتل كونراد والآراء التي دارت حول مصرعه. انظر : إبراهيم خميس إبراهيم: الصراع على عرش مملكة بيت المقدس، ومقتل كونراد مونتفرات (١١٩٢-١١٨٨م/584-588 هـ)، بحث في كتاب دراسات في تاريخ مصر البيزنطية، الإسكندرية ١٩٩٦م ، ص ١٦٣. ١٧٩

^(١١٥) Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, P.431; CF.also: Archer T.A.,

The Crusade of Richard I, P.323.

^(١١٦) عن معاهدة صلح الرملة وأثرها على العلاقة ما بين المسلمين والصليبيين.

انظر: محمود سعيد عمران: الهدن بين المسلمين و الصليبيين في عصر الدولة الأيوبية ، بحث ألقى في ندوة

العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٢م/ ص ٢٢. ٢٧

عندما أيقن الملك ريتشارد أن السلام مع المسلمين هو أنسب الحلول، وذلك بعد ما طالت غيبته عن بلاده، وأصبح يخشى المؤامرة على عرش إنجلترا^(١١٧).

وفى يوم الأربعاء الموافق ٢ سبتمبر ١١٩٢م / ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ ، قام رسل السلطان صلاح الدين، وهم العادل أخو صلاح الدين والأفضل والظاهر ولداه بإمساك يد الملك ريتشارد، ثم حلفوا بالنيابة عن سيدهم السلطان^(١١٨). ورفض ريتشارد باعتباره ملكاً بأن يحلف، فأقسم بالنيابة عنه باليان دي إيبيلين وهنري دي شامبني Henri de Champagne^(١١٩) وقادة جماعتي الإسماعيلية والدواوية. وفى اليوم التالي — الخميس ٣ سبتمبر ١١٩٢م / ٢٣ شعبان ٥٨٨هـ قام صلاح الدين بالتصديق على المعاهدة بحضور رسل الملك ريتشارد، وعلى رأسهم باليان دي إيبيلين، وبذلك كانت خاتمة الحملة الصليبية الثالثة^(١٢٠). بعد أن نجح صلاح الدين وبمهارته دبلوماسية فائقة في فرض معاهدة حصل منها على ما يريد دون التفريط في الثوابت.

وفى اليوم السابق ذكره — وهو يوم التصديق على المعاهدة — جرى حوار ما بين صلاح الدين الأيوبي وباليان دي إيبيلين، يظهر فيه وبشكل ملحوظ مدى توطد العلاقة ما بين القائدين، حيث تحدث باليان إلى القائد الإسلامي قائلاً: "ما عمل أحد في الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم

^(١١٧) Geoffery de Vinsof , *History of Expedition of Richard to the Holy land*, (London, 1848), PP.272-289, Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, PP.355-356 وللمزيد من التفاصيل عن تلك المؤامرة انظر : زينب عبد المجيد عبد القوى: الإنجليز والحروب الصليبية، عين للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٥٠

^(١١٨) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٣٤؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 203؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٤٠٥
^(١١٩) هنري دي شامبيني: تولى حكم مدينة صور بعد مقتل كونراد دي مونتفرات عام ١١٩٢م / 588 هـ ، تزوج من إيزابيلا الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس الاسمية، ثم انتخب ملكاً على المملكة (1192 - 1197) م / ٥٨٨ . 594 هـ ، انظر:

CF. Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, PP.233-244; Eracles, - op.cit., PP.194-195,202.

^(١٢٠) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢١٨. ٢١٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية ، ص ٢٣٥؛ ابن العديم : تاريخ حلب ، ج ٣، ص ١٢١. ١٢٢ ، انظر أيضاً:

Geoffery de Vinsof, *History of Expedition of Richard to the Holy land*, PP.329-330; Eracles, op.cit., P.199; Ambrois , *The Crusade of Richard Lion – Heart*, P. 431; Roger of Wendover, op. cit., Vol.2, P.123;CF.also : Archer T.A., *The Crusade of Richard I*, PP.323-324; Runciman, op.cit.,Vol.3, P.72.,

إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق^(١٢١). ونستشف من الحوار السابق ذكره، إلى أي مدى كان صلاح الدين وباليان يرغبان في السلم، مفضلين الحلول الدبلوماسية عن تجربة الحروب بما فيها من مرارة وسفك للدماء.

أما عن تأثير المعاهدة — السابق ذكرها — على باليان، فمن الجدير بالذكر أن أملاكه لم تعد للصليبيين طبقاً لبنود المعاهدة، حيث أصبحت نابلس ومجدليابة وإيبيلين تحت السيطرة الإسلامية، بينما وضعت الرملة — والتي كانت شبه مهدمة — ضمن ما يعرف بمناصفات المدن، وهي التي تخضع لإدارة إسلامية صليبية مشتركة^(١٢٢).

واستطاع باليان دي إيبيلين أن يستغل علاقته الطيبة بصلاح الدين الأيوبي الذي منحه إقطاع القيمون Caymont^(١٢٣)، وهو بلا شك هدية ثمينة لما لهذا الإقطاع من أهمية اقتصادية واستراتيجية في المنطقة^(١٢٤). واشترط صلاح الدين أن يكون الإقطاع منحة طيلة حياة باليان فقط، ولا يحق له أن يورث^(١٢٥). وعندئذ حصل باليان على التصديق والموافقة من الملك هنري دي شامبيني على توليه إقطاع القيمون، بل والاعتراف بسلطته التامة عليه^(١٢٦). والحقيقة أن تلك المنحة جاءت في وقتها المناسب، حيث كان باليان حينئذ بدون أملاك، لما فقدته عقب كارثة حطين.

(١٢١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢١٨

(١٢٢) عن معاهدة يافا وبنودها. انظر: محمود سعيد عمران: الهدن بين المسلمين والصليبيين، ص ٢٦. ٢٧؛ وللمزيد من التفاصيل عن مناصفات المدن أو الحدود المشتركة وطرق إدارتها. انظر: على السيد على: العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٦، ص ٤٣. ٦٧
(١٢٣) القيمون: إقطاع صغير، تبلغ مساحته ٥٠ كم تقريباً، وتقع على منحدرات جبل الكرمل، وهو شرق قيسارية الشام، ويمثل الحدود الجنوبية لإمارة الجليل، ويحيط به من الشمال حيفا، أما من جهة الغرب فيطل الإقطاع على بلدة الناصرة .

CF.Benvenisiti, M., op.cit., P.15; Riley Smith, *The Atlas of The Crusades*, (London – 1991) P.37.,

(١٢٤) بالرغم من صغر مساحة الإقطاع ، و كونه واحداً من الاثني عشرة إقطاعية الصغرى التي كانت تتكون منها المملكة الصليبية قبل موقعة حطين ، إلا أنه طبقاً لموقعه الجغرافي الفريد ، فقد كان بمثابة حلقة الوصل بين شمال مملكة بيت المقدس و جنوبها ، كذلك كان لوقوع أحد الينابيع المائية بالقرب منه أثره الكبير في زيادة أهميته الاقتصادية في تلك الفترة .تتظر:

Steven Tibble , op.cit., P.64.

Eracles,op.cit., P.198.

(١٢٥)

و كذلك: سعيد البيشاوي : وصف الأراضي المقدسة في فلسطين – الرحالة الألماني يوحنا فورزبورغ ، الشروق للنشر والتوزيع ، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٠٢

Ernoul, op.cit., P.293; Eracles. Op.cit., P.199

(١٢٦)

توضح الوثائق مرة أخرى دور باليان دي إيبيلين في أحداث المملكة الصليبية الاسمية . فقد كان من أول الموقعين على الوثائق من عهد الملك هنري دي شامبينى، والذي تزوج من إيزابيلا ابنة زوجته ماريّا كومينا^(١٢٧). ثم ظهر واضحاً غياب باليان في إحدى وثائق الملك هنري، وذلك في يناير ١١٩٤م/ صفر ٥٩٠هـ، حيث قدم رينالد سيد صيدا شهادته أولاً^(١٢٨)، ونظراً لأن باليان لم يكن من ذلك الطراز الذي ينسحب من الحياة العامة بهدوء. ولما كان هناك غياب كلى لأي ذكر عنه في المصادر التاريخية أو الوثائق، لذا فمن المتوقع أنه توفي في الفترة ما بين أواخر عام ١١٩٣م وبداية عام ١١٩٤م^(١٢٩).

وإذا حاولنا تقييم تلك العلاقة السلمية التي جمعت بين القائد الإسلامي صلاح الدين الأيوبي و الأمير الصليبي باليان دي إيبيلين ، نجد أنه بالرغم من وجودهما في فترة عصبية من الصراع الصليبي الإسلامي نجد أنه وبسبب ما طرأ من أحداث، خاصة عندما جرف إلي باليان القدر أمر مسئولية حماية بيت المقدس — عاصمة المملكة الصليبية — ومفاوضات المثمرة مع القائد الإسلامي صلاح الدين الأيوبي، والتي أثمرت في النهاية عن تلك العلاقة الطيبة التي جمعت بين القائدين، والتي قلما كانت تحدث في هذا الوقت المليء بالروح العدائية بين طرفي الصراع، ثم أستمريت تلك العلاقة السلمية بين الطرفين في ظل الصراع المرير الدائر في المنطقة ، وذلك بمشاركه باليان في التصديق على معاهدة الرملة بين طرفي النزاع ، وكان حصوله على تل القيمون، من قبل صلاح الدين أبرز الدلائل على نجاح السياسة السلمية والعلاقات الطيبة التي جمعت بينه وبين صلاح الدين آنذاك.

Röhricht, *Regesta*, Doc.707,709,710,713,716

(١٢٧)

حيث ظهر اسم باليان دي إيبيلين في تلك الوثائق، متقدماً على معظم بارونات المملكة من أمثال رينالد سيد صيدا، هيو سيد طبرية

Röhricht, *Regesta*,

(١٢٨)

Doc.717

John La Monte , *John Iblin "The Old Lord of Beirut.*, in B., vol. 12, 1937 , P.

(١٢٩)

423.

كان الظهور الأول ليوحنا بن باليان دي إيبيلين ، و خليفته في زعامة الأسرة يرجع إلى عام ١١٩٤م / حيث ساهم بفاعلية فيما جرى من أحداث في تلك السنة بجانب الملك هنري. انظر :

CF.Eracles , op.cit. PP.202-203.,

الملخص العربي:

تتناول هذه الدراسة أفكار وجوانب جديدة تستحق الدراسة عن صلاح الدين الأيوبي البطل المسلم ، في فترة تاريخية غلب عليها الصراعات الدموية ، إذ على الرغم من إنتصاراته العديدة على الصليبيين ، إلا أنه أدرك في الوقت نفسه أن إستخدام السلاح السلمي مطلوب دون التفريط في الثوابت ، وهي الأراضي الإسلامية وعلى رأسها مدينة القدس. ونجح في براعة في فرض توازن ما بين تصرفاته السلمية، وقيادة الجيوش الإسلامية في جبهة القتال، من خلال ذلك المشهد الذي أثار إنتباه الجميع منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري وحتى الآن، وهو ذلك اللقاء الذي تم أمام أسوار مدينة القدس بينه وبين الأمير الصليبي باليان دي إيبيلين ، لتحديث لقاءات صدامات عسكرية ولقاءات تباينت ما بين الحرب والسلام ،ومن ثم حصل صلاح الدين في النهاية على شهادة أعداؤه ، بإعتباره نموذج للفارس الشهم التي تتمثل فيه إخلق فروسية العصور الوسطى ، ليصبح وبحق الدبلوماسي المحارب.

الكلمات المفتاحية: صلاح الدين – باليان دي إيبيلين – القدس – الصليبيين.

الملخص الإنجليزي:

This study deals with new ideas and aspects that deserve to be studied about the Muslim hero Saladin, in a historical period that has been dominated by bloody conflicts. Despite of his many victories over the Crusaders, he realized at the same time the importance of peace without neglecting the constants, which is protect the Islamic lands, especially the city of Jerusalem. He has successfully balance between his peaceful actions and the leadership of the Islamic armies in the battlefield, through that scene, which drew everyone's attention from the late 12th century AD / 6th century AH to the present, the meeting in front of the walls of Jerusalem between him and the Crusader Prince Balian de Iblin, as there were military encounters that varied between war and peace, and then Saladin eventually obtained the testimony of his enemies, as a model for the chivalrous knight in which the morals of medieval equestrian are represented, to become a true warrior and diplomatic knight.